اللغة والهوية ومرحلة الاستعداد لتعلُّم القراءة

رؤية تنظيرية، وتوجُّه تطبيقي

د. محمود كامل حسن الناقة(*)

الُهوِيَّة (بضم الهاء وكسر الواو) تعني كيان الإنسان وذاته وتحدد حقيقته من حيث اسمه وجنسه ومولده وعمله وثقافته وانتمائه، أي أن هوية الإنسان تعني كينونته ووجوده؛ ومن ثَم فهي تُطلق على ما يُسمى بالبطاقة الشخصية، تلك التي نستدل منها على حقيقة الفرد وكيانه. وما أضيعَ الإنسانَ عندما يفقد هويته، وما أضيعَه عندما تُصاب هويته بالضياع من خلال العبث بلغته والعمل على تخلفها وانهيارها!

ولذلك، فعندما نتحدث عن اللغة والهوية موضوع هذه الصفحات العجالة لا بد أن أقرر أن:

لغتي أثمن مقتنياتي. لغتي موضع حبي واعتزازي.

لغتي ثقافتي وجذوري. لغتي تذوُّقي وإبداعي.

لغتي وطني وعِرْضي. لغتي هُوِيَّتي وانتمائي.

إن الحديث عن اللغة والهوية يحتاج أن نبرز هذه العلاقة الوثيقة بين المفهومين، من خلال استعراض لرؤية في اللغة تقرر في النهاية أنها الهوية.

اللغة أكسبت الإنسان قدرة أخرجته من عالم الحيوان (النطق والكتابة) فأزالت أعجميته فصار حيوانًا ناطقًا مفكرًا، فالوجود الإنساني ملحوم باللغة كما يقول زكي نجيب محمود، ولا يوجد إنسان بدون الاستعداد لتعلم اللغة[1]، وهي بذلك جعلت للإنسان هوية.

اللغة وعاء الثقافة وأداة التعبير عنها وإثرائها وتسجيلها وحفظها ونقلها وتطويرها، فاللغة هي الفكرة وهي الثقافة، بل هي المهارة التي ترفع عارفها إلى الصدارة، والثقافة تحدد خصوصية الهوية، ومن ثَم فاللغة أيضًا تحدد خصوصية الهوية.

(*) أستاذ المناهج وطرق التدريس ـ كلية التربية ـ جامعة عين شمس.

اللغة مرآة تعكس حياة أصحابها الاجتماعية والثقافية، من عقائد وقيَم ومُثُل ومبادئ وأخلاق وتعاملات ونُظُم وعلوم ومعارف وفنون وتربية، ولذلك قال زكي نجيب محمود في كتابه المعنون: (في تحديث الثقافة العربية): "إذا دب خلل ما في اللغة دب خلل أكبر في الثقافة، فكأن ضعف اللغة وقوَّتها معيار تُقاس به الثقافة قوة وضعفًا"[٢] لذا فقوة اللغة قوة للثقافة ومن ثَم قوة للهوية.

اللغة هي أداة الوصل بيننا وبين ثقافتنا في أبعاد الماضي والحاضر والمستقبل، وإلا فلتت منا هويتنا أو ننفلت منها على حد تعبير د. زكي نجيب محمود.

بهذه المعاني كلها تصبح اللغة حياة الناس، وعندما يريد الناس تطوير هذه الحياة وتحديثها فإنهم يلجئون إلى اللغة لأن حياة الناس مبنية على الفكر كما يشير إلى ذلك زكي نجيب محمود، واللغة والفكر صنوان[٣] (هل منا من ينكر أن فكر الإنسان وتفكيره مقوم أساسي من مقومات هويته).

وكما أن اللغة هي أداة التفكير فإنها أيضًا ثمرة من ثمراته، فعن طريق اللغة يقوم الإنسان بالعمليات التفكيرية من تفسير وتحليل وربط واستنتاج وموازنة وإدراك علاقات واستقصاء للنتائج وتجريد وتعميم، ثم يصب ناتج كل تلك العمليات عندما تمده اللغة بالرموز التي تحدد له المعاني وتحمل له الأفكار، فلكي يعبر الإنسان بوضوح لا بد أن تكون الفكرة واضحة في ذهنه، وذلك لأن وضوح الفكرة في ذهنه يؤدى إلى وضوح التعبير عنها وكلا الأمرين ـ وضوح الفكرة في الذهن ووضح التعبير عنها عملية تستند إلى اللغة والمقصود باللغة هنا اللغة الأم، ولذلك نستطيع أن نقول إن اللغة العربية للعربي هي التفكير. ويشير (فانيير) إلى أن ما يؤثر في أعماقنا بشكل غامض ومبهم لا يستحق أن نطلق عليه اسم فكرة أو إحساس أو رغبة أو غاية قبل أن يتشكل في لغتنا[٤]، ولذلك فاللغة ليست رموزًا ولا مواصفات فنية وحسب، ولكنها في الأساس منهج فكر وطريقة نظر، وأسلوب تصوير، هي رؤية متكاملة تمدها خبرة حضارية متفردة، ويرفدها تكوُّن نفسي مميز، فالذي يتكلم لغة هو في واقع الأمر يفكر بها، فهي تحمل في كيانها تجارب أهلها وحكمتهم وخبرتهم وكلمتهم وبصيرتهم وفلسفتهم "وهل الهوية" غير ذلك الكيان الذي يحمل كل ذلك، إنها اللغة، إنها الفكر. ومادامت اللغة كذلك إذًا فعندما يطور العلماء والمفكرون وقادة الرأي الثقافة والفكر وأداتهم في ذلك اللغة فإنهم يطورون الهوية، وبنفس المعنى فإن تطوير الهوية لا يتم إلا عن طريق اللغة . . ألا ينبغي في ضوء ذلك أن نقول إن اللغة هي الهوية، والهوية هي اللغة . . ألا ينبغي أن نقول أيضًا إن الإنسان بلا تفكير إنسان بلا هوية، أليس التفكير هو الأسلوب؟ ويقول علماء اللغة (الأسلوب هو الشخصية) والشخصية هي الهوية ـ لذلك نعود فنقرر أن اللغة هي كيان الفرد، والكيان هو الهوية.

وفي هذا السياق نقول أيضًا إن أمة بلا إبداع أمة بلا هوية ولا يوجد المبدع الذي لا ينتسب إلى ثقافة ولا يختزن فكرًا، إذ لا بد أن يكون المبدع صاحب ثقافة عريضة عميقة ملمًّا بإبداعات الآخرين في أمته وغيرها وأساليبهم وفنياتهم وفلسفاتهم ورؤاهم، ولا بد أن يكون مفكرًا يولد ويحلل ويستنتج ويربط ويجدد ويبتكر؛ ولذلك فالإبداع مشروط بالثقافة والفكر وكلاهما اللغة أداته وثمرته. ومن هنا، فإن توحد اللغة والفكر يؤدي إلى توحد أصحاب اللغة وترابطهم وانصهارهم في بوتقة واحدة من لغتهم وفكرهم. وهكذا نرى أن اللغة هي تاريخ الأمة، فتاريخ البشرية منذ بدايته يفترض وجود اللغة "وتستطيع اختبار ذلك ـ كما يقول أمين الحولي ـ بما تشاء من علم أو عمل أو فن . . أو إلخ فلن تراه إلا تعبيرًا وتعليمًا وتفاعلاً وتعاونًا، ووسيلة ذلك كله وأداته كله هي الإفهام والتفاهم بأقرب طرائقهما وهو الكلام[٥]. وهكذا أيضًا نرى أن اللغة هي حياة الأمة، بل هي الأمة وهي الوطن وهي الشخصية وهي بداية الأمم ونهايتها، ولقد جعلها كونفوشيوس البداية أيضًا منذ خمسة قرون قبل الميلاد عندما سُئل عما يصنع لو استنجد به قوم وقد سادتهم الفوضى فقال "ابدأ بإدخال شيء من النظام على لغتهم"[٦] وهكذا نستطيع أن نسلم بأن اللغة من هذا المنظور الإبداعي هوية.

إن الحديث عن اللغة والهوية هو حديث عن اللغة والولاء والانتماء والوحدة القومية. إن هوية الفرد لا تتقرر إلا من خلال انتمائه وولائه إلى أمة معينة، ولا شك أن الأمة لا تساوي المجموع الحسابي للأفراد، بل هي أكثر من ذلك، لأن الأمة هي مجموع الأفراد مع العلاقات التي توحد الأفراد في الكل، والأمة ـ في التفكير الواقعي ـ ليست كيانًا ميتافيزيقيًّا لا وجود له إلا في عالم آخر أو في العقل فقط، بل هي وجود قائم يتحقق بالفعل من خلال التاريخ المشترك واللغة المشتركة والثقافة المشتركة والأوجه الأخرى المعبرة عن وحدة الوجود القومي والمصير المشترك[٧]، وهي أوجه متضمنة حتمًا في الثقافة المشتركة.

وهذا يعني أن الانتماء والولاء من جانب والوحدة القومية من جانب آخر وجهان لعُمْلَة واحدة، فالأمة هي مجموع الأفراد في علاقات تتوحدهم، ومن ثَم فبدون هذه العلاقات التوحدية يفقد الفرد انتماءه وولاءه لأن هذه العلاقات التوحدية هي التي تولد الولاء والانتماء، فالإحساس أو الشعور بالولاء يعني بالضرورة وجود دافع داخلي في الفرد يجعله يشعر من داخله بالطمأنينة عندما يكون جزءًا من كل، ومن ثَم يشعر بالضياع عندما يكون خارجًا عن الأمة. هذه العلاقات التوحدية إنما تتمثل في الثقافة المشتركة والفكر الواحد.

كل هذا يؤكد أن ثقافة الناس تعني هويتهم المنسابة في عروقهم مع دمائهم على حد تعبير د. زكي نجيب محمود في كتابه (تجديد الفكر العربي) فحياتهم هي ثقافتهم، وثقافتهم هي هويتهم، وهويتهم هي حياتهم، ومادامت اللغة وعاء هذه الثقافة أي الهوية، وهي أداة استمرارها ووصلها

بالماضي واستشرافها للمستقبل تصبح اللغة إذًا هي حياة الناس، ومن هنا يقول زكي نجيب محمود: "حتى عندما يريد الناس تطوير هذه الحياة وتحديثها فإنهم يلجئون إلى اللغة؛ لأن حياة الناس مبنية على الفكر أولاً"؛ لذا لا نستطيع كما يقول هذا المفكر "أن نتصور لأمة من الأمم ثورة فكرية كاسحة للرواسب إلا أن تكون بدايتها نظرة عميقة تراجع بها اللغة وطرق استخدامها، لأن اللغة هي الفكر ومحال أن يتغير هذا بغير ذاك"[٨].

وإذا صح كل هذا على أي لغة فإنه يصح على لغتنا العربية أكثر من غيرها؛ لأنها وجدت مع الحياة العربية منذ نشأتها ولازمتها مُلازَمة الروح للجسد في جميع فترات تطورها عبر قرون طويلة فلم تستبدلها الأمة بغيرها ولم تستغن عنها؛ فلا وحدة لنا قبلها ولا وحدة لنا بعدها "وبها توحد العرب قديمًا، وبها يتوحدون اليوم ويؤلفون في هذا العالم رقعة من الأرض تتحدث بلسان واحد وتصوغ أفكارها وقوانينها وعواطفها في لغة واحدة على تنائي الديار واختلاف وتعدد الدول"[٩]. ومن ثَم فهي هويتهم.

إن الحديث عن اللغة العربية لا ينفصل عن الحديث عن الإحساس بالهوية وبالمُواطَنة والشعور بالولاء، فهي أقوى عوامل الوحدة والتضامن بين أبناء الأمة العربية، ولقد وجد العرب في لغتهم صفة الملازمة للفرد في حياته وتسربها إلى أعماقه حسًّا ووجدانًا، وتوغلها في تضاعيف نفسه لتعبر عن أدق خطراته ورغباته وهي بالتالي جعلت من الأمة الناطقة بها كُلاًّ متماسكًا ومتراصًا تحكمه قواعدها وأصولها، وتوحد تفكيرهم أساليبها وطرائقها، ومن هنا أصبحت اللغة العربية تمثل الرابطة التي توحد بين رغباتهم ومطامحهم وعاشت في أذهانهم فكرًا وأملاً وحياة[١٠]؛ ومن ثَم كيانًا وهوية.

واللغة العربية هي أبرز ما يتميز به العرب وأقوى رابط يشدهم إلى تاريخهم، ويُظْهر استمراريتهم وبقاءهم، ويجمعهم اليوم بالرغم مما بينهم من اختلافات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية. ولا عجب أن جعلت الحدود اللغوية على البقعة الجغرافية العربية حدودًا أساسية للأمة العربية على خلاف كثير من أمم العالم، وبهذا تكون اللغة قد جعلت من هذه الأرض وطنًا ينتمي إليه العربي، فالعربي لا يعرف بهيئته وسمات وجهه وإنما يعرف بلغته، وإن عُرف بثقافته كانت اللغة سبيلاً إلى ذلك، وهكذا يؤدي هذا الانتماء إلى الولاء، وباتحاد نوعية الولاءات، وكيفيتها بين الأفراد يتكون الشعور بالهوية العربية.

والباحث في القومية العربية يجد اللغة قلبها، وأهم رابطة من روابطها والخِضَمّ الذي انصبَّتْ فيه روافد عادات الأمة وتقاليدها ومُثُلها وقَيمُها وسائر السمات المميزة لها، والسبيل التي لا سبيل سواها لوصل حاضر الأمة بماضيها، وقد لا نجانب الصواب إذا ما ذهبنا إلى أنها هي الشخصية العربية ولا قوام لهذه الشخصية بدونها؛ ولذلك فزوال اللغة العربية لا يُبْقى للعربي المسلم هوية أو

قوامًا يميزه عن سائر الأقوام، ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم[١١] فيفقد انتماءه العربي، ويضيع ولاؤه، ومن ثَم يفقد العرب جميعًا ترابطهم ووحدتهم. ويشير ماكس[١٢] قائلاً: "باللغة، وباللغة وحدها يندمج الفرد بالمجتمع ويتلقى كل تراث الأمة الفكري والشعوري والأخلاقي والاجتماعي" ونحسب أن هذا الاندماج هو ما يمكن أن نسميه أولاً بالانتماء، ذلك الذي هو السبيل الحتمي إلى الولاء الوطني ومن ثَم الهوية.

إن معايشة الفرد العربي للثقافة العربية واندماجه فيها وممارسته لها وانغماسه في عناصرها لا يمكن أن يتم إلا من خلال وسيلة مهمة بهذه الثقافة؛ ألا وهي اللغة العربية التي تلازمه مثل الثقافة تمامًا منذ طفولته، وترافقه في كل طور من أطوار حياته، حتى يصنع تفكيره في النهاية بشكل معين، وتُشكَّل شخصيته بطريقة معينة، على أرض واحدة تجمع فيه ماضيه وحاضره، ومن هنا يتشكل انتماؤه ومن ثَمَّ ولاؤه للثقافة العربية واللغة العربية والأرض العربية والمجتمع العربي، أي تتشكل هويته.

وفي هذا السياق نذكر أنه كثيرًا ما نسمع تعبير "العقل العربي" أو العقلية العربية، أي العقل الجماعي للعرب، أي الوحدة العقلية العربية وصعب أن تجد هذا التوحد العقلي دون وجود شكل ما من الاتصال الرمزي في جماعة العرب، أي اللغة العربية يقول لويس[١٣] بصدد دور اللغة في الوحدة القومية: "فالتذكر الجماعي والتخطيط الجماعي والإحساس الجماعي والإدارة الجماعية، كل أولئك تحقق وتعدل بوجود شكل ما من الاتصال الرمزي في الجماعة ـ أي اللغة ـ إن الاتصال الرمزي هو الذي يجعل في طوق الجماعة أن يتجه انتباهها إلى مجرى سلوكها، وأن اللغة لتمكِّن الجماعة من أن تجعل هذا الانتباه أكثر شمولاً، وتجعل اللغة من الممكن بالنسبة للجماعة أن ترمز إلى عقلها الجماعي فتعطى اللغة العقل الجماعي قوة يصير بها عقلاً جماعيًّا شعوريًّا" وهذه هي الهوية بعينها.

وهكذا نرى أنه إذا كانت بعض الأمم تقوم على وحدة الهدف السياسي أو على وحدة الأرض، أو الأصل أو العادات أو التاريخ المشترك؛ فإن وحدتنا ما قامت إلا على أساس وحدة اللغة التي جمعت العرب بعد خلاف في اللهجات حول لغة واحدة، وما سُميت المنطقة الجغرافية التي يقوم عليها الوطن العربي ـ كما سبق أن أشرنا ـ بالبلاد العربية إلا لأنها كانت تتكلم اللغة العربية.

إن الشعور المشترك والشعور الموحد يتكون من القدرة على التفاهم والاتصال بكل مستوياته وأبعاده وجوانبه عبر لغة واحدة، لو أخذنا اللغة العربية على أبسط مستويات الاتصال فيها لوجدناها تؤلف الناس في علاقات اجتماعية "فعبارات التحية المألوفة التي يتبادلها الناس تسلك المتخاطبين في علاقات اجتماعية، كما أن لغة التأدب مثل "شكرًا" و"عفوًا" و"إذا سمحت"

و "صديقكم المخلص" . . . إلخ هذه في الأغلب الأعم وسائل لتوثيق صلات الناس بعضهم ببعض، كما أن عبارات الحديث عن الجو وأثره على الناس والحيوان والنبات تلك التي تتم بين الناس يوميًّا تؤدى إلى غاية في التآلف والتعاطف وتوحد في الهوية "[١٤] إنك لترى أبناء الشعب الواحد متفرقين أفرادًا تفصل بينهم فواصل المكان والزمان، فهذا الفرد هنا وذلك الفرد هناك، وفرد كان بالأمس، وفرد كائن اليوم، فتسأل: أين الروابط التي جعلت من هؤلاء الأفراد ـ على تفرقهم ـ شعبًا واحدًا؟ والجواب هو: اللغة قبل أي شيء آخر ـ أي الهوية ـ فأعجب لخيوط من هواء تشد الناس بعضًا إلى بعض، فإذا هي بينهم كروابط الفولاذ "[١٥] وهي روابط الهوية؛ ولذلك نجد الأمم التي وحدت كلمتها وبنت قوميتها، وأظهرت كيانها وشخصيتها لجأت إلى اللغة وسيلة إلى ذلك التوحيد وهذا البناء، فإيطاليا توحدت على أساس اللغة وهكذا ألمانيا؛ ولذلك عرف (فيخته) الأمة الألمانية بأنها جميع الذين يتكلمون الألمانية وعدها أساس الهوية فيقول: "إن الذين يتكلمون لغة واحدة يكونون كلاً موحداً ربطته الطبيعة بروابط متينة وإن كانت غير مرئية "[١٦].

ويدعمنا في هذا السياق أن الدين الإسلامي نفسه الذي تدين به الأكثرية الساحقة من العرب ـ والذي يعزز في نفس العربي صفة الانتماء والولاء وينادى بالوحدة والترابط والإخاء ويمنحه هوية ذات خصوصية ـ قد جاء مقرونًا باللغة العربية، وليس من اليسير قراءة القرآن الكريم والحديث الشريف وفهمهما واستيعاب معاني هذا الدين ولا حتى عباداته من غير معرفة اللغة العربية. ولعل من الأمور التي ينبغي أن نلتفت إليها في هذا السياق هو "أن العلاقة بين اللغة العربية والشعور القومي أي الهوية لا تقتصر على نقطة محددة ساكنة من الزمن، بل إن العلاقة موجودة أيضًا إذا ما نظرنا إلى اللغة والشعور القومي بمنظار متحرك، وبعبارة أخرى أننا نستطيع أن نقول إن الشعور القومي يعتمد ـ في جملة ما يعتمد ـ على معرفة اللغة العربية في الوضع الزمني الحاضر أي بمقياس زمني ساكن، فكون المواطن الفاني يتكلم العربية الآن فإن عاملاً من عوامل تكوين شعور قومي عنده توافر. هذا هو المنظور الزمني المحدد الساكن، ولكننا إذا ما أخذنا أساسًا متواصلاً أي متحركًا فإننا نقول بالنسبة لهذا المواطن، إنه كلما ازدادت معرفته وإتقانه للغة العربية ازدادت قوة اللغة كعامل لتكوين الشعور القومي عنده، أي ازداد شعوره القومي قوة وازدادت هويته رسوخًا. فزيادة المعرفة باللغة العربية والإمعان في إتقانها يعني طرديًّا زيادة في أمور عديدة أخرى، كفهم التراث وتذوق الأدب واستيعاب التاريخ وفهم القرآن واستيعاب الحديث والفقه الإسلامي، إذًا فالعلاقة طردية بين اللغة العربية والشعور القومي ليس على أساس ساكن، بل وعلى أساس متحرك أيضًا "[١٧].

وهكذا تبقى اللغة أنجح الوسائل وأقواها لخلق المجتمع المتماسك الذي يحس فيه كل فرد بالانتماء والولاء بشكل عفوي، وبلا دافع من منفعة أو مصلحة ذلك لأن (المجتمع اللغوي) أقدم أشكال المجتمعات وأشدها أصالة وعراقة، وكما قال (غونتر إيسن) فإن: "اللغة روح المجتمع

الحقيقية، وهي التي تؤلف عالَمًا قائمًا بذاته ومحققًا وجوده على هذا الأساس، فالمجتمع هو "نحن" التي تعي ذاتها في اللغة وبها تتواصل"[١٨].

من كل ذلك نرى أن اللغة وطن، ومادامت وطنًا فلا بد أن نذود عن حماه، ولذلك عندما يُراد هدم وحدتنا، والقضاء على انتمائنا، وسلب ولائنا، والسيطرة على عقولنا، وتحطيم كياننا، ومسخ شخصياتنا أي طمس هويتنا ـ فإن السهام تُوَّجه إلى لغتنا، ومن ثَم ثقافتنا، باعتبارهما الركنين الأساسين لمقوِّماتنا الذاتية، ولنا أن نتخيل كيف يمكن لهذه السهام أن تفعل بشبابنا من حيث نظرتهم إلى لغتهم وثقافتهم، ومن ثَم قومهم وعقائدهم وأنفسهم وهويتهم؛ ولعل هذا هو أحد أهداف العولمة التي بدأت مظاهرها تتبدَّى فيما يحدث للغة العربية.

إننا في عصر هروب اللغات[١٩]:

- فعشر لغات تموت كل عام، وأحيانًا تموت لغة كل أسبوعين.
- ويتنبأ البعض بأن ٥٠٪ إلى ٩٠٪ من اللغات التي كان يتكلمها الناس في القرن الماضي قد اختفت.
- ويعتقد المتخصصون أن أية لغة لا تستطيع أن تعيش إلا إذا كان متحدثوها لا يقلون عن ١٠٠ ألف شخص. ونصف لغات العالم أي ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) لغة يتكلمها أقل من ١٠ آلاف شخص، ورُبع لغات العالم يتكلمها أقل من ألف شخص.
- إذًا هناك ٤٥٠ ألف لغة ماتت أو في عداد الموت، أي ٧٥٪ من اللغات.
- إن سبب موت اللغات هو الاستعمار الأوروبي ـ فعلى مدى ٣٠٠ سنة الأخيرة فقدت:

١ـ أوروبا ١٢ لغة.

٢ـ أستراليا بقى فيها ٢٠ لغة من ٢٥٠ لغة.

٣ـ البرازيل ماتت فيها ٥٤٠ لغة أي ثلاث أرباع اللغات التي كانت موجودة بها ـ وهذا بسبب الاستعمار البرتغالي.

إن آثار موت اللغات آثار خطيرة؛ لأننا لو تكلمنا لغة واحدة فستفقد عقولنا بعضًا من قدرتها الطبيعية على الابتكار اللغوي (فاللغة كائن حيّ).

إن موت اللغات هو موت لسجلات تاريخ الشعوب، كما أن موت اللغات يؤدي إلى موت الثقافات؛ لأن تعدد اللغات هو الطريق لتعدد الثقافات. ولذلك ففرض لغة ليس لها رابطة بثقافة شعب وأسلوبه في المعيشة يخنق التعبير عن عبقريتهم الجماعية، ومن ثَم يقضس على هويتهم.

إن بعض الجنس البشري أصحاب اللغات التي تموت، تموت معهم ثقافات مهمة للبشرية، مثل هؤلاء شعب (الزابارو) الذي كان كهنته يعرفون الأسرار الطبية لأكثر من ٥٠٠ نوع من النباتات. "والزابارو من شعوب الأمازون والهنود".

إن التهديد للتعدد اللغوي أشبه ما يكون بالتهديد للتنوع الحيوي ـ ليس فقط لأن أغلب اللغات مثل (الأنواع) التي تختفي، ولكن لأن هناك رابطة حقيقية وغير مقصودة بين التنوع الحيوي والتنوع الثقافي ومثل أنواع النبات والحيوان ـ إن موت اللغة يأخذ معه كل المعرفة عن البيئة.

إن القضاء على اللغات، سواء تم بقصد أو دون، هو واحد من الأدوات الأساسية لقتل الأعراق، ولحرمان الشعوب من ثقافتها ومن ثَم هويتها، ولعل هذا هو الهدف شبه الرسمي للقُوَى الاستعمارية، ولعل من أوقع ما قيل في هذا السياق هو (إن أفضل طريقة للقضاء على لغة ما هو التعليم والتعلم بلغة أخرى)[٢٠]؛ ومن ثَم فإن أفضل طريقة للقضاء على هوية ما هي القضاء على لغتها.

من هنا دعونا ننظر في: إلى أين لغتنا العربية؟

في هذا السياق نكاد نقول: والغتاه . . ! هكذا وصل بنا الحال أن ننعيَ لغتنا العربية ونشيِّعَها، وكذا أنتهز هذه الفرصة لأطلق صرخة في وادي العرب أرجو أن تجد صداها، وأستغيث استغاثة آخر رمق قبل الغرق علَّى أجد المغيث والمعين.

أقول هذا مستنداً إلى:

مأساة، كارثة، مصيبة، انهيار، قصور، تخلف، تشويه، مشكلة، تحلُّل، عجز، موت، شكوى صارخة، خطر يتهدد، غريبة بين أهلها، يهجرها أصحابها . . إلخ. وهي التعبيرات التي نقرؤها معبرة عن حال اللغة وواقعها على ألسنة أبنائها، ومعبرة عن الشكوى من هذا الواقع، هذه الكلمات والتعبيرات التي ربما دلت معاني كل واحدة منها على شيء محزن، فإذا تجمعت معاني كل هذه الكلمات والتعبيرات وجدنا أنفسنا أمام صرخات باكية حزينة مرتجفة؛ لأن الضعف في اللغة العربية والشكوى منه أصبح حديثًا شائعًا، فما من متخصص في علوم اللغة، أو في الأدب أو في إعداد مناهجها أو في رسم استراتيجيات تعليمها، وما من مفكر له اهتمامات لغوية، أو كاتب له نظرة قومية قيمية، وما من متخصص في العلوم الدينية أو الاجتماعية، وما من باحث في علوم اللغة، وعلوم تعليمها ـ إلاَّ ويرى أن واقع اللغة العربية الآن على ألسنة المتعلمين والمثقفين مأساة نعيشها، وكارثة حلت بنا، ومصيبة أحاطت بلساننا، وقصور أصاب بياننا، وتحلُّل استشرى في تعبيرنا، وتشويه أضاع ملامح فكرنا، وتخلف وعجز أصاب تعليمنا اللغوي حتى أصبحت اللغة غريبة بين أهلها الذين هجروها، وأضحت مشكلة تواجه ثقافتنا وهويتنا، وخطرًا يتهدد كياننا الشخصي الفردي والوطني وتراثنا الفكري والديني، وقيَمنا الاجتماعية والخُلُقية، ولقد بلغ الأمر أن قيل (إذا أردت أن تعرف أين تموت اللغة العربية فاعلم أنها تموت في كل مكان).

يتبدَّى حال واقع اللغة العربية في الإشارات التالية :

- شيوع الأخطاء النحوية والإملائية واللغوية لدى الطلاب في جميع مراحل التعليم : لدى طلاب الدراسات العليا، ولدى المثقفين والإعلاميين، بل ولدى طلاب الماجستير والدكتوراه من العاملين في حقل تعليم اللغة العربية، بل ومعلمي اللغة العربية .
- شيوع الأخطاء واستخدام العامية في وسائل الإعلام وفى الجرائد والمجلات بشكل ملفت للنظر، برغم وجود المراجعين اللُّغويين (المانشيتات) .

وفى هذا السياق نقتبس ما ذكره الأستاذ إبراهيم يسرى على صفحات الأهرام يوم ٢٦/ ٢/ ١٩٩٩ في مقاله (دعوى إلى مؤتمر ثقافي قويم لإنقاذ هويتنا)؛ حيث يقول :

(لم نعد نعرف إن كنا في مصر العربية أم في أمريكا أم بريطانيا؟ فالحاج عتريس يسمى شركته عتريسكو بدلاً من شركة عتريس، (ومتولي كو) بدلاً من شركة متولي، (ودريم لاند) بدلاً من أرض الأحلام (وجرين لاند) بدلاً من الأرض الخضراء .

ومحلات البقالة أصبح اسمها (ماركت) والعمارات أصبح اسمها (سنتر)، والجنون نقول عليه (كريزي) والسحر نقول (ماجيك)، واختفت لدى جيل هذه الأيام أكلات الفول والطعمية وغيرها، لكي تنتشر أطعمة الهامبرجر والكنتاكي، وأصبح من المعتاد أن يتخذ محل تجاري أو شركة اسمه باللغة الأجنبية، ويمارس أعماله باللغة الأجنبية، ومع تراجع مستوى التنشيءة الثقافية كانت النتيجة أن الشباب الحالي ـ فيما عدا قلة ـ أصبحوا في حالة ضياع ثقافي، فلا هم ينتمون إلى مصادر الثقافة الغربية التي نهلوا منها، ولا هم قادرون على استيعاب منابع الثقافة العربية لأنهم يفتقرون إلى لغتها) .

وأضيف أنك إذا شاهدت مباريات كرة القدم في الملاعب العربية على شاشة التلفاز لا تستطيع أن تميز هل هذا الملعب في بلد عربي أم في بلد أجنبي، فكل ما تراه من إعلانات من خلال عدسة الكاميرا هي إعلانات باللغات الأجنبية، ومن النادر وأنت تسير في الشارع أن تجد محلاً أو دكانًا أو متجرًا أو مكتب خبرة أو وكالة أو هيئة قد وضع لنفسه اسمًا عربيًّا، بل هناك من الأماكن والمحلات ما اتخذ اللغة الإنجليزية لغة معاملة وبيع وشراء وتفاهم، كل هذا لا تخطئه العين – وإن أخطأه القانون وزلزلة الهوية .

- انظروا إلى أقسام التعليم باللغة الإنجليزية والفرنسية في كليات التجارة والإعلام والاقتصاد والعلوم السياسية والحقوق بل والتربية، وهنا المصيبة أعظم .
- انظروا إلى كثرة استخدام المثقفين للمصطلحات والكلمات الأجنبية في غمار حديثهم بالعربية، بل وفى كتاباتهم .
- انظروا إلى اشتراط إتقان اللغات الأجنبية في جميع إعلانات الوظائف وتعيين القيادات

الإدارية والسياسية، ولم يسمع أحد شيئًا عن إتقان اللغة العربية، اللغة الأم، لغة التعامل اليومي.

- انظروا إلى معاهد تعليم الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية وغيرها من اللغات، وأيضًا مراكز تطوير تعليم اللغات الأجنبية، في الوقت الذي لا يوجد فيه مركز واحد لتطوير تعليم اللغة العربية، وهي أحوج ما تكون الآن في بلادها وأوطانها ومجتمعاتها وبين متحدثيها إلى مثل هذه المراكز.

ـ انظروا إلى التعليم الأجنبي الخاص في التعليم العام والتعليم الجامعي:

المدارس الخاصة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية.

الجامعات الخاصة:

- الجامعة الأمريكية.
- الجامعة الفرنسية (سنجور) بالإسكندرية.
- الجامعة البريطانية.
- الجامعة الألمانية . والبقية تأتي!

وإذا دققنا النظر في هذا النوع من التعليم نجد أنه يقوم على أساس:

- أنه التعليم الأرقى لأنه يعلم بلغة أجنبية.
- أنه التعليم الضامن للمستقبل الزاهر، فهو ما تبحث عن خرِّيجه سوق العمل.
- أنه التعليم الذي يوفر بيئة اجتماعية حضارية راقية.

وهي أُسس لو حللناها لوجدنا أنها واهية خادعة ـ وأنها تؤدي إلى مخاطر اجتماعية ثقافية، على رأسها إنكار الأساس الأصيل للمُواطَنة ولتكافؤ الفرص، وهو أن التعليم ينبغي أن يكون للقدرات والمواهب العقلية وليس للمال والطبقة الاجتماعية فلا يجوز حرمان أولاد الفقراء الموهوبين، كما لا يجوز فتح الفرص أمام أبناء الأثرياء العاجزين. ومنها انهيار قيمة الهوية والانتماء والخصوصية ووحدة الشخصية والذاتية القومية، من حيث ما يؤدي إليه هذا النوع من التعليم باللغات الأجنبية من تعدد وتباين وشعور بالدونية لمن يتعلمون بالعربية.

وها هي دراسة أُجريت على مجموعة من التلاميذ التونسيين حول موقفهم من الفرنسية والعربية.

فقد قُسِّم التلاميذ إلى ثلاث مجموعات لثلاثة مستويات اقتصادية اجتماعية، هي:

أـ مجموعة المستوى الرفيع. بـ مجموعة المستوى المتوسط.

جـ مجموعة المستوى الضعيف.

وكشفت النتائج عن:

١ـ تمسك التلاميذ من المستويين: الضعيف والمتوسط باللغة العربية، فَاقَـهُ شـغفُ تلاميـذ المستوى الرفيع باللغة الفرنسية.

٢ـ يفضل تلاميذ المستويين: المتوسط والضعيف اللغة الفرنسية على اللغة العربية في مجـال الفعل، ويتركون للغة العربية مجال الانفعال. ويرون أن الفرنسية لغة الذكاء والنجاعة الاجتماعية.

٣ـ بمقارنة مكانة كل من اللغتين في أعين التلاميذ وجد أن تلاميذ المستوى الرفيع يفـضلون الفرنسية، بينما يعادل المستوى المتوسط بينهما، أما المستوى الضعيف فيرجح العربية.

وفى هذه الدراسات دلالات كثيرة جداً ـ يدركها الفطن ـ خاصة مـدى تـأثير اللغـة في نفـوس التلاميذ وهويتهم لا سيما عندما تكون السهام الموجهة للغة العربيـة مقنّعـة بقنـاع النـضج والرقـي والعصرية، وما يتضمنه ذلك من افتراض أن اللغة العربيـة لغـة الانكمـاش والتقهقـر والحـنين إلى الماضي.

هل من تعليق ؟!!!

أين اللغة العربية مناط منظومـة القـيم، والثقافـة، والـولاء والانتمـاء، وهكـذا تطغـى لغـة الأقوى، ويفرض الأقوى ثقافته، ويستلب عقل الأمة وفكرها ومن ثَـمَّ هويتهـا . . إلى أيـن نحـن ذاهبون بلغتنا ؟!!

ويذكر د. فتحي محمد جمعة في أهرام ٥ يناير ٢٠٠٠ في مقال عنوانه: (لغة بـلا أمـة) أن اللغـة العربية تنهار وأمتها في سُبات عميق، (ذلك أن اللغة تحيا بحياة أمتها وتموت بموتهم، كمـا أن الأمـة تحيا بحياة لغتها وتموت بموتها).

وفي مقال للأستاذ فهمي هويدى بعنوان: (ويل لأمة مغصوبة اللسان) يقول: (دعـت إحـدى المدارس الخاصة بالإسكندرية أولياء الأمور للاجتماع، وطلب مـنهم منـع أطفـالهم مـن الحـديث باللغة العربية في البيوت ومعاقبتهم عن طريق حرمانهم من المصروف إذا وقعوا في المحظور ونطقـوا بغير الإنجليزية ـ والغريب أن هذه المدرسة تتقاضى لقاء قطع اللـسان العربـي أربعـة آلاف دولار في الفصل الدراسي الواحد، وأنها لكي تحقق هذا الهدف على الوجـه الأكمـل لم تكتـف بالتـدريس طول اليوم باللغة الإنجليزية، وإنما أيضًا تبث عيونًا بين التلاميذ في فترات الراحة (الفـسحة) لمراقبـة التزامهم بمخاصمة الحرف العربي والتبليغ عن كل من سَوَّلت له نفسه أن يتحدث بلغته الأم.

ولقد كان رد المديرة على من اعترض (أن تعليمهم الإنجليزية هو الأهم، وأن ملاحقة التلاميذ على هذا النحو هو الوسيلة الوحيدة لتمكينهم منها في مبتدأ حياتهم، أمـا اللغـة العربيـة فـيُفترض أنهم يعرفونها أصلاً).

وفى تجربة بإحدى المدارس بدولة عربية هدفت إلى تطبيق استخدام جميع المعلمين والمعلمات اللغة العربية في جميع المواد وبدأت التجربة على مستوى صفوف عدة: الأول والثاني والثالث والرابع ـ وكشفت التجربة عن قبول الصفوف الأولى بشكل ما للتجربة، أما الصفوف المتقدمة التي تعودت على التعلم بالعامية فقد ذهبوا إلى أولياء أمورهم قائلين بدأنا نتعلم لغة أجنبية لا نعرف اسمها !!! ألم نقل إن اللغة وطن؟!! جفَّت الأقلام وطُويت الصحف).

ويبقى الأمل يلوح في الأفق إذا ما ألح علينا السؤال الذي يقول: وما العمل إذًا؟ وما الحل؟ وفى محاولة للإجابة ـ في إطار لغة الطفل ـ نحاول وضع تصور إجرائي عملي لكيف نبدأ تعليم اللغة العربية للأطفال فيما يُسمى بمرحلة تنمية الاستعداد لتعلُّم وتعليم القراءة، من حيث إن تعليم أطفالنا اللغة العربية إنما يرتكز في كل المرحلة الابتدائية وما قبلها على تعليم القراءة، ولكي ينجح تعليم القراءة وتعلمها ومن ثَم تعليم اللغة العربية وتعلمها لا بد أن نجعل تخطيط مرحلة الاستعداد لتعلم القراءة والإعداد لها بشكل علمي وجاد جزءًا من المشروع القومي للنهوض بتعليم أطفالنا اللغة العربية، وبحيث نضع لهذه المرحلة برنامجًا عربيًّا متكاملاً يمكن أن يشغل مكانًا مرموقًا في رياض الأطفال وفى السنوات الأولى من المرحلة الابتدائية لتهيئة أطفالنا للتمكن من مهارات القراءة، ومن ثَم التمكن من تعلم اللغة.

وفيما يلي:

وفيما يلي نقدم مجموعة من المقترحات والتوصيات التي يمكن أن تؤخذ في الاعتبار عند وضع استراتيجية للغة الطفل بكل أبعادها:

- تشكيل لجنة خبراء من المختصين والعاملين في ميدان تعليم الطفل والتربويين القائمين على تعليم اللغة العربية؛ لوضع تصور لكيفية تهيئة الأطفال لتعلم القراءة كمدخل لتعلم اللغة العربية وإتقان استعمالها والاعتزاز بها، هذا التصور الذي يقوم على فكرة تنمية الاستعداد لتعلم القراءة ومن ثَم تعلم اللغة في الفترة ما قبل المدرسة الابتدائية (رياض الأطفال) والصفين: الأول والثاني الابتدائيْن ـ ولتحقيق هذا الأمر يلزم الإجابة عن سؤال رئيس يقول: كيف نهيئ الطفل ونستثير استعداده وننميه لكي نصل به إلى حالة يكون فيها قادرًا على متابعة تعلمَ القراءة ومن ثَم تعلم اللغة؟

وفى الإجابة عن هذا السؤال نقترح ونوصي بما يلي:

١ـ دراسة العوامل التي تركز عليها عملية تنمية الاستعداد لتعلم القراءة، ومن ثم تعلم اللغة لدى أطفالنا، من حيث:

أـ النضج العقلي وما يتضمنه من قدرات تتصل بعمليات القراءة ومهاراتها، وعمليات تعلم اللغة واكتساب مهاراتها.

ب- النضج الجسمي وما يتصل به من إدراك حسي و سمعي وبصري ونطقي وحركي .
ج- النضج الانفعالي وما يشمله من ثقة في النفس، وثبات في الانفعال، وقدرة على المواجهة، وميل للتعلم، وإقبال على تعلم اللغة .
د- النضج اللغوي وما يتصل به من ثروة لغوية في المفردات والمعاني والأساليب (الاستفهام ، النفي، الإثبات ، التوكيد . . . إلخ) .

وهناك عاملان آخران : هما :

أ- التدريب، أي التدريب على اكتمال الإدراك للأشكال والأحجام، والمعاني، والاتجاهات، والعلاقات، وقراءة الصور والرسوم، وتعرُّف الرموز اللغوية وأصواتها ومعانيها، وتكوين تعبير لغوي مفهوم . . . . إلخ .
ب- زيادة الخبرة، أي زيادة خبرة الطفل من خلال الرحلات والزيارات والأنشطة المدرسية والمجتمعية، وتنمية مهارات الملاحظة والحديث والاستماع، والنشاط الفني، والنشاط الحركي الكتابي، وتنمية الثروة اللغوية من كلمات ومعانٍ ومفاهيم ودلالات . . . إلخ .

وأيضًا إثراء البيئة الثقافية من حول الطفل، من حيث توفير مكتبات الطفل وأوعية المادة المقروءة المناسبة له والإثارة الدائمة لرغبته وميوله نحو الكلمة المكتوبة .

٢- التخطيط لمنهج تعليمي لغوي لإعداد مواد تنمية الاستعداد لتعلم القراءة، ولإعداد كتب تعليم اللغة والقراءة خاصة في الصفين : الأول والثاني الابتدائيْن .

٣- التخطيط لإعداد معلم للغة العربية متخصص في التنمية اللغوية للأطفال، على أن نهتم في هذا الإعداد بمداخل تنمية الاستعداد لتعلم القراءة وطرقه وفنياته واستراتيجياته، وأيضًا لمرحلة البدء في تعليم القراءة ومن ثَم اللغة .

٤- وضع مقاييس واختبارات لقياس عوامل الاستعداد لتعلم القراءة ولقياس مدى التقدم في النمو اللغوي، وفى ضوئها يمكن وضع تصور علاجي لما تكشف عنه هذه المقاييس والاختبارات من جوانب قصور أو ضعف أو تأخر في تعلم اللغة .

٥- وضع مخطط لجمع وتصنيف مشكلات الطفل العربي في تعلم لغته العربية الفصيحة؛ خاصة ما يتصل منها بالجانبين : العقلي والوجداني (الصعوبة - الدونية) .

٦- وضع خطة عربية للبحوث اللغوية والتربوية المتصلة بتعليم اللغة العربية للطفل العربي في وطنه الأم أو في المهجر ترتكز على ما تم عمله في التوصية السابقة .

٧- دراسة البحوث والدراسات السابقة - وهي كثيرة مبعثرة - تلك المتصلة بتعليم الطفل اللغة العربية الفصيحة، وذلك بتجميع نتائجها وتوصياتها ومقترحاتها وتصنيفها، والخروج منها

بمجموعة من المشروعات ترجمة لتوصياتها ومقترحاتها يُوكَل تنفيذها إلى الهيئات والمؤسسات العاملة في ميدان تربية الطفل وتعليمه، وأيضًا الخروج منها بمجموعة من الأُسس العلمية يُستند إليها عند التخطيط لتفعيل تعليم الأطفال وتعلمهم لغتهم العربية الفصيحة.

٨ ـ دراسة خبرات الأمم الأخرى والاتجاهات الجديدة والمعاصرة في ميدان تنمية الاستعداد لتعلم اللغة القومية لدى أطفالهم، وفى ميدان تعليم لغاتهم لأبنائهم بشكل عام، والإفادة من ذلك في مخططاتنا وبناء مناهجنا لتعليم العربية لأبنائنا.

٩ـ وفي ضوء الإفادة من كل ذلك، ينبغي الشروع في وضع مخطط علمي لمنهج متكامل لتعليم اللغة العربية في المدرسة الابتدائية العربية يبدأ بمرحلة ما قبل هذه المدرسة وينتهي بالصف السادس، ليصبح هذا المنهج دستوراً لإعداد المواد التعليمية والكتب وطرق التدريس والأنشطة والتقويم، مع تطوير هذا المخطط ليتلاءم مع ظروف المدرسة الابتدائية في كل وطن عربي، وأيضًا استجابة لكل ما يجدُّ في ميدان تعليم اللغة القومية للمبتدئين الصغار.

obeikandl.com

المراجع حسب ترتيب ورودها في الدراسة:

١ـ زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، القاهرة، ط٨ (١٩٨٧)، ص٢٣٠ .

٢ـ زكي نجيب محمود، في تحديث الثقافة العربية، دار الشروق، القاهرة ط١ (١٩٨٧)، ص٤٩٥ .

٣ـ زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، مرجع سابق ، ص٢٠٥ .

٤ـ محمود أحمد السيد، في قضايا اللغة العربية، وكالة المطبوعات، الكويت (بدون)، ص٣٠ .

٥ـ أمين الحولي، محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية، مطابع الكتاب العربي، القاهرة (١٩٨٥)، ص١ .

٦ـ الشاذلي الفيتوري، الأسس النفسية والاجتماعية للغة العربية، في "اللغة العربية والوعي القومي" بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط٢ (١٩٨٦)، ص١٦٥ .

٧ـ ياسين خليل، اللغة والوجود القومي، في "اللغة العربية والوعي القومي" المرجع السابق، ص٣٤٢ .

٨ـ زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، مرجع سابق، ص٢٠٥ .

٩ـ محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دراسة تحليلية مقارنة للكلمات العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد، دار الفكر الحديث، بيروت(١٩٧٠)، ص٢٣٢ .

١٠ـنوري جمودي القيس، ظاهرة الاستشهاد اللغوي والحفاظ على الهوية القومية في "اللغة العربية والوعي القومي" ، مرجع سابق، ص١٩٠ .

١١ـمحمد جابر الفياض، أهمية اللغة في الحياة الإنسانية، المرجع السابق، ص٢٨٢ .

١٢ـمحمود أحمد السيد، مرجع سابق، ص٧.

١٣ـم.م. لويس، اللغة في المجتمع، ترجمة تمام حسان، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ص١٢٥ .

١٤ـمحمود السعران، اللغة والمجتمع (رأي ومنهج)، دار المعارف، الإسكندرية (١٩٦٣)، ص٢١ .

١٥ـزكي نجيب محمود، في تحديث الثقافة العربية، مرجع سابق، ص٤١١ .

١٦ـمحمود أحمد السيد، مرجع سابق، ص٧ ، ٨ .

١٧ـاللغة العربية والوعي القومي (المقدمة)، مرجع سابق ص٩ .

١٨ـعفيف دمشقية، أدوات التعريب المواكب ووسائله من منظور وحدوي، في "التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية" ، بحوث الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (١٩٨٢)، ص ٤٠٧ .

١٩ـانظر : رسالة اليونيسكو، أبريل سنة ٢٠٠٠، اللغات هل تتصارع أم تتعايش، ص ١٧ .
٢٠ـالشاذلي الفيتورى، مرجع سابق، ص١٦٤ .

obeikandl.com